تصدير

بقلم

دكتور مصطفى زيور

« من حل اللغز الذائع الصيت وكان أشد الرجال اقتدارا »
سوفوكليس [1]

يجمع المشتغلون بالتحليل النفسى على أن « تفسير الأحلام » خير ما كتب فرويد وأكثر مؤلفاته أصالة . ويرى فرويد هذا الرأى نفسه . فقد صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب سنة ١٩٠٠ وها هو ذا فرويد سنة ١٩٣١ بعد أن نشر عشرات الرسائل والكتب يسجل رأيه فى كتابه هذا فيقول عنه : « إنه حتى فيما أرى اليوم يحوى أثمن الكشوف التى شاء حسن الطالع أن تكون من نصيبى ؛ فمثل هذا الحدس لا يأتى العمر مرتين » .

ولكن فى هذه الجملة الأخيرة تواضعاً شديداً ، لأن الحقيقة أن الأحلام مسألة شغلت اهتمام الإنسان منذ أقدم ما نعرف من العصور ، كما يدلنا على ذلك ما جاء فى القرآن والكتاب المقدس عن قصة يوسف ، وما نراه فيما وصل إلينا من آثار القدامى فى الحضارات الهندية والصينية والعربية (مثل كتاب ابن سيرين وغيره) . وليس أدل على ذلك من أن المعلم الأول أرسطو أفرد مؤلفين لموضوع الأحلام كما أن أب الطب هيبوقراط أنشأ فصلا عن العلاقة بين الأحلام والأمراض فى كتابه الذى وصل إلينا . وظل الاهتمام بموضوع الأحلام لدى الفلاسفة خلال القرون الوسطى ثم لدى العلماء والفلاسفة فى العصر الحديث كما سيتبينه القارئ من الفصل الأول من هذا الكتاب .

إنها لحقيقة جديرة بالتأمل : أن تشغل مسألة الأحلام الإنسانيةَ بأسرها ، شعوبها وروّاد الفكر فيها ، ثم تبقى مع هذا دون حل حاسم حتى يناهز القرن التاسع عشر نهايته ويظهر سيجموند فرويد فيحل اللغز الذائع الصيت . المسألة إذن ليست « حدساً لا يأتى

(١) بيت من تراجيديا « أوديب ملكا » يوصف به أوديب . وقد نقش على مذالية مع صورة أوديب وهو يرد على سؤال أبى الهول وأهديت المذالية إلى فرويد من تلامذته فى أحد أعياد ميلاده .

العمر مرتين » وإنما هى من الحدس الذى لا يتاح إلا مرة فى قرون .

علينا الآن أن نسأل أنفسنا لمَ امتنع الحل طوال هذه الأحقاب ، ولمَ كان من نصيب فرويد دون غيره أن يكشف عن طبيعة الحلم . إنه لا يسعنا أن نجيب عن هذين السؤالين دون أن نستضىء ببعض الحقائق الأساسية التى يضمها هذا الكتاب . ذلك أن الحلم ليس أمراً مستقلا عن سائر أحوال النفس — فى يقظتها — بل هو يتصل بها أوثق الاتصال ويكوّن حلقة من حلقات الحياة النفسية . ويزيد خطورته أنه يعبر عن أمور لا يسعنا حتى مجرد الإحساس بها أثناء اليقظة ، ويحيط بما عنى عليه الزمان من الأحداث والخبرات الأولى فيبعثها أمام ناظرنا ، فتتضح لنا الصلة بين ماضى الفرد وحاضره ، ويستبين ما كان قد استغلق علينا فهمه من أحوال الإنسان ، حتى استحق الحلم وصف فرويد : إنه الطريق الأمثل إلى أعماق النفس .

بل إنا لنتبين فى الحلم سمات على آثار قديمة ترجع إلى عهود غابرة من تاريخ الإنسانية ومنطقاً غريباً نابياً لا نعهده فى يقظتنا إلا حين ننظر فى أحوال المجنون أو الرجل البدائى أو الطفل الصغير ، وأسلوباً فى الخيال والتعبير شديد الشبه بأسلوب الأساطير وعقائد المجتمعات القليلة الحظ من الحضارة . وبعبارة أخرى إن الحلم نافذة تطل على أعماق النفس يترامى البصر منها إلى آفاق تصل إلى طفولة الإنسان ، لا بل إلى فجر تاريخ الإنسانية ومراحل تطورها جميعاً ، فضلا عن أنها تجمع فى أفق واحد بين العقل والجنون من حيث أن الحلم خبرة من خبرات الإنسان الصحيح العقل ولكن طبيعته الهلوسية لا تختلف عن هلوسة المجنون . ومعنى ذلك أن الكشف عن طبيعة الحلم إنما يكشف عن طبيعة العقل والجنون جميعاً .

يتضح إذن أن مشكلة الحلم أعظم شأناً مما يبدو لأول وهلة وأن من يعقد العزم على أن يزيح الستار عن طبيعته إنما يواجه مشكلة طبيعة النفس الإنسانية بأسرها . وقد كان ذلك بين الأسباب التى جعلت موضوع الأحلام أمراً عسيراً ممتنعاً على الفهم العلمى الصحيح قروناً عديدة . ومن أجل ذلك كان « تفسير الأحلام » يضم فى الحقيقة بين دفتيه أخطر الاكتشافات فى تاريخ معرفة الإنسان بنفسه ، وكان صدوره فتحاً لا يدانيه أى فتح فى العلوم الإنسانية ، ونقطة تحول بالغة الأثر فى تطور علم النفس والطب النفسى جميعاً ، حتى شبهه البعض بكتاب كوپرنيكس الذى طلع بثورة فكرية أرست قواعد علم الفلك الحديث .

ذلك أننا نقف فى هذا الكتاب على المعنى الصحيح لأخطر اكتشافات التحليل النفسى وأعنى به ما اصطلح عليه بالعمليات الأولية والعمليات الثانوية ، فدراسة الأحلام تتيح لنا أن نتعمق كلا منها ، وأن نفهم ما يقوم بينها من العلاقات ، فيتضح لنا الارتباط بين أشياء كان يظن أنها متباينة مستقلة بعضها عن بعض ، ونشعر بأن ضياءً قد بددت الظلمات التى كانت تكتنف أشتات الحياة النفسية . فما أن ندرك طبيعة العمليات الأولية التى يقوم عليها بنيان الحلم حتى تنجلى لنا معالم منطق فريد يختلف اختلافاً ملحوظاً عن منطقنا الذى نألفه أثناء اليقظة فى المجتمعات المتحضرة (أى منطق العمليات الثانوية) ، ولا نلبث أن نفطن إلى أن منطق العمليات الأولية إنما هو المنطق الذى يُنسج هذيان المريض على منواله ، حتى صح القول بأن الحلم مرض نفسى قصير يستغرق الليل ، وأن المرض النفسى حلم طويل يستغرق الليل والنهار .

ولا يقتصر الأمر على ذلك . فإننا إذ ننعم النظر فى منطق الحلم لا نلبث أن ندرك أنه المنطق الذى يعتنقه كل منا فى فجر حياته (أى أثناء الطفولة الأولى) وهو كذلك المنطق الذى تعتنقه الإنسانية فى فجر الحضارة فضلاً عن أنه عين المنطق الذى يصدر عنه خيال الشعراء وغيرهم من الفنانين . وإذا استرشدنا ما ظفر نا به من الفهم ، وتابعنا التنقيب فى سائر أحوال الإنسان رأينا غموضها وقد استحال وضوحاً ، وكأنها اصطفت جميعاً فى صعيد واحد . ومن الجلى أن هذه هى الصفة التى تميز الاكتشافات الكبرى : أعنى تقريب الشقة بين الأشياء الكثيرة المتباعدة وانخراطها فى نظرة واحدة تؤلف بينها ، كما حدث مثلا عند اكتشاف وحدة الموجات الضوئية والموجات الكهربية المغناطيسية وغير ذلك من الظاهرات الفيزيقية .

وهكذا ندرك أن صفحات « تفسير الأحلام » قد اشتملت الأسس التى قامت عليها دراسات فرويد اللاحقة فى شتى نواحى الحياة الإنسانية ، وأعنى بذلك ما نشره فى أعقاب « تفسير الأحلام » من المؤلفات الأساسية مثل كتابه فى « علم النفس المرضى فى الحياة اليومية » ثم كتابه « الطوطم والتابو » الذى أرسى فيه قواعد علم الأنثروبولوجيا الاجتماعية الحديثة ، ثم كتابه المشهور « ثلاث مقالات فى النظرية الجنسية » الذى عالج فيه العلاقة بين اضطرابات النمو النفسى الجنسى أثناء الطفولة وبين ما يلم بالراشد من أمراض وانحرافات نفسية ، ثم دراساته الاكلينيكية فى الطب النفسى وبخاصة « طرف من تحليل

حالة هستيريا » و « مذكرات عن التحليل النفسى لحالة من حالات البارانويا »، فضلا عن دراساته التطبيقية وبخاصة « النكتة وعلاقتها باللاشعور » و « العلاقة بين الشعر وأحلام اليقظة » . ونجد فى هذا الكتاب أيضاً نواة الدراسات التى قام بها بعض تلاميذه مثل دراسة أرنست جونز لشخصية هاملت . وجميع هذه الكتب تعتبر من المؤلفات الأساسية فى التحليل النفسى ، التى نزمع نشرها تباعاً فى هذه المجموعة .

فإذا تبينا ما لكتاب تفسير الأحلام من أهمية أساسية أدركنا أنه لا سبيل إلى فهم صحيح للتحليل النفسى بغير دراسة هذا الكتاب دراسة دقيقة تصحح تلك التصورات الساذجة المبتسرة كالقول بأن التحليل النفسى هو اكتشاف اللاشعور أو أنه نظرية قوامها تفسير الأمراض النفسية بأسباب جنسية . هذا فضلا عن كونه كتاباً ينبغى أن يقرأه كل طبيب نفسى وكل مشتغل بعلم النفس أو التربية أو الأنثروبولوجيا الاجتماعية أو تاريخ الحضارة أو النقد الأدبى أو فقه اللغة وما إلى ذلك من علوم الإنسان .

* * *

بقى أن نجيب عن الشق الثانى من السؤال الذى طرحناه فى بدء هذا التصدير ، أعنى : لمَ كان من نصيب فرويد دون غيره أن يكشف عن طبيعة الحلم . والإجابة عن هذا السؤال أمر يعنينا لأن فيها تبياناً لأهمية أخرى لهذا الكتاب ، فضلا عن أنها تلقى ضوءاً على اللحظات الحاسمة فى نشأة التحليل النفسى .

فى السنوات الأولى من العقد الأخير من القرن التاسع عشر كان فرويد يخطو خطواته الأولى فى سبيل الكشف عن طبيعة مرض الهستيريا ، فتبين له أن أعراض هذا المرض تخضع لحتمية سيكولوجية ، أى أن هذه الأعراض تعبر عن معان نفسية ، معان لا ترد جزافاً وإنما تحكمها علّية يمكن تحديدها كما تحدد علية الظواهر الفيزيقية . ثم ما لبث أن ابتدع منهج التداعى الحر كوسيلة لاستقصاء المعانى المتضمنة فى الأعراض ، فكان يطلب من مرضاه أن يطلقوا العنان لخواطرهم فلا يمسكوا عن ذكر ما يخطرهم مهما كان تافهاً أو نابياً . فلاحظ أن مرضاه كانوا يذكرون فيما يذكرون أحلاماً عرضت لهم أثناء الليل ، ثم كانوا ينطلقون فى ذكر ما يعن لهم من الخواطر بصدد هذه الأحلام . فأصغى فرويد إلى رواية هذه الأحلام إصغاءه لغير ذلك من الخواطر ، محاولا أن يتبين ما قد تشير إليه هذه

الأحلام من معان فى ضوء السياق العام لما يفضى به المرضى وما يعانون منه .

وليس من اليسير على القارئ فى أيامنا هذه ، وقد ذاعت مكتشفات التحليل النفسى وأصبحت جزءاً من الثقافة العامة — ليس من اليسير عليه أن يدرك خطورة هذا الموقف الجديد الذى اتخذه فرويد ، وما يتضمنه من ثورة فكرية على الأوضاع العلمية السائدة فى عصره . فقد كان فرويد فى ذلك الوقت أحد العلماء الذين أنجزوا اكتشافات علمة مرموقة فى ميدان التشريح والطب العضوى ، وكان يعتنق تعاليم مدرسة هلمهولتز فى التفسير الفيزيقى لظواهر الحياة ، وهى التعاليم التى كانت تعتبر نبراساً لكل باحث فى الطب والعلوم البيولوجية . فالبحث عن « معنى » للأحلام يعتبر مروقاً بل إهداراً للمبادئ الأساسية للبحث العلمى كما كان يتصوره معاصروه ، لأن الاتجاه العلمى الصحيح فى رأيهم لا يكون إلا بالبحث عن الأحداث الفيزيقية والكيميائية ، وما عدا ذلك فهو ارتداد إلى أسلوب التفكير الغيبى أو شطحات الشعراء .

والواقع أن كتاب « تفسير الأحلام » استقبل عند صدوره استقبالاً سيئاً من معاصرى فرويد من العلماء . فها هو ذا البروفسور ليبمان الأستاذ بجامعة برلين يكتب عنه قائلا : « لقد انتصرت (فى هذا الكتاب) الأفكار الخيالية للفنان على الباحث العلمى » [1] .

وإننا نعلم اليوم أن هذا النقد — وإنْ جانبه الصواب — يلمس عن غير قصد حقيقة هامة . ذلك أن مكتشف التحليل النفسى ما كان ليظفر باكتشافاته ما لم يصطنع ضرباً من الحدس الفنى أخضعه لأسلوب البحث العلمى . فإن ما يميز الإنتاج الأدبى والشعر خاصة هو كما يقول كولريدج « التعطيل الإرادى للريبة » فالشاعر الأصيل يعطل عن قصد ارتيابه فيما جرى العرف على الارتياب فيه والاستخفاف به . فالأخيلة التى يزورّ الناس عنها ويرونها أضغاثاً باطلة ، تلقى لديه أذناً صاغية . وها هو ذا فرويد يكتب فى سيرته التى ظهرت فى هذه المجموعة بعنوان « حياتى والتحليل النفسى » ما يأتى : « كنت أعطل ملكتى النقدية حتى أحتفظ بموقف غير متحيز لآراء سائدة وأكون مستعداً للنظر فى أى أمر يجد من الأمور التى كانت تنكشف لى كل يوم » . والحق أن أهم ما يتميز به رواد العلم أنفسهم إنما هو هذه « السذاجة » التى يعرفون كيف يتلقون بها الظواهر .

وإنها لحقيقة نعرفها اليوم : إن الشعراء سبقوا فرويد فى حدس الكثير من الحقائق

(١) Ernest Jones : Freud. Life and Work. Vol. one. London. p. 396.

النفسية . غير أن الشعراء كانوا يهدفون إلى إنشاد ما يدخل المتعة على النفس ، على حين أن فرويد كان يجهد فى أرساء قواعد علم مقنن . لقد كان من نصيب فرويد أن يكشف عن طبيعة الأحلام لأنه استطاع أن يستعير من الفنان قدرته على الحدس وتعطيله الإرادى للريبة مخضعاً ذلك لمقتضيات البحث العلمى .

على أن ذلك ما كان ليفضى به إلى إنجاز كتاب « تفسير الأحلام » — وهو كما سبق القول حجر الزاوية فى بناء التحليل النفسى بأسره — ما لم يقم بأخطر تجربة قام بها إنسان فى تاريخ المعرفة كلها ، أعنى : إقدامه على تحليل نفسه تحليلاً منهجياً بتحليل أحلامه .

حقاً أن فرويد كان قد فطن قبل ذلك إلى الدافع الأساسى فى تكوين الحلم أعنى تحقيق الرغبات ، وذلك من تحليله لبعض أحلام مرضاه ، وتأكد لديه هذا الرأى من تحليله لحلم رآه فى يوليو سنة ١٨٩٥ ، وهو حلم « حقنة إرما » الذى يناقشه فى الفصل الثانى من هذا الكتاب . ويتبين من قراءة هذا الفصل أنه كان قد وصل فى فهمه للعمليات النفسية التى تشكل بناء الحلم إلى مدى بعيد ، مما يؤيد قوله فى رسالته « تاريخ حركة التحليل النفسى » : إن جوهر « تفسير الأحلام » كان قد أنجز فى أوائل سنة ١٨٩٦ ولكنه لم يكتب إلا فى صيف عام ١٨٩٩ . بل إنا نعلم اليوم من المخطوطات التى اكتشفت بعد وفاته أنه أقدم فعلا فى سبتمبر سنة ١٨٩٥ على كتابة رسالة (أطلق عليها اسم : مشروع سيكولوجية علمية) أفرد فيها لموضوع الأحلام ثلاثة فصول بين فيها أن الأحلام تنشأ لتحقيق رغبة كما بين طابعها الهلوسى والارتداد النكوصى للعقل فى الهلوسات والأحلام على السواء ، وأوضح عملية النقل فى الأحلام ثم التشابه بين تكوين الحلم وتكوين الأعراض العصابية ، وعرض كذلك لاكتشافه الأساسى ، أعنى الفارق بين العمليات النفسية الأولية والعمليات الثانوية .

ولكن مهما بلغ شأن هذه البيانات الأساسية فى نظرية الأحلام فإن هذه الرسالة لا تقارن بكتاب تفسير الأحلام إلا كما يقارن كوخ صغير بقصر شاهق ، بالرغم من أن الفترة التى تفصل بينهما لا تعدو سنتين أو ثلاثة . غير أن هذه السنوات القليلة حفلت بأعظم الأحداث فى تاريخ التحليل النفسى ، إذ أقدم خلالها فرويد على تحليله لنفسه فأنجز بذلك — كما سبق القول — أخطر تجربة قام بها إنسان فى تاريخ الفكر ، لأنه كان ل أمن حقق الشعار الفلسفى الأول : اعرف نفسك .

لقد كنا نعلم مما نشره فرويد أنه أفاد من تحليله لأحلامه فائدة عظيمة مكنته من السير قدماً فى اكتشافاته ، ولكن القصة الكاملة لهذه الفترة من جهاده العلمى لم نقف عليها الا عند ما نشرت بعد وفاته (١٩٥٠) رسائله الخاصة إلى صديق يدعى « فليس » . فى هذه الرسائل نراه يسجل ما مر به من تجارب فريدة وما اعترض طريق البحث من عقبات تأتيه من نفسه ، ثم تصميمه على أن يزيل هذه العقبات حتى يظفر بالحقيقة كاملة

إن رواية قصة جهاده فى هذه الفترة تقتضى من الصفحات ما يشمله كتاب . فيكفى أن نذكر أنه كان قد أقام نظرية فى تعليل الهستيريا اعتنقها عدة سنوات ، ثم إذا بهذه النظرية تنهار فجأة أمام نقد حاسم سلطه عليها فى ضوء تجاربه المتكررة مع مرضاه ، فيقف فى ظلام دامس من حيث علية العصاب ، ويجد نفسه فجأة وقد أوصدت أبواب الفهم أمامه مهما بذل من جهد . ولكنه ما لبث أن فطن إلى أن تعطيل قدرته على البحث متصل بأسباب تأتيه من أعماق نفسه ، أى من مقاومة عنيدة تحول دونه والاستبصار . وبعبارة أخرى فقد أيقن أن الشرط الأساسى لكى يفهم الإنسان غيره من الناس فهماً صحيحاً ، هو أن يبدأ بفهم نفسه ويزيل الستار الذى يحول دون إدراك النفس لكنهها . ولا مفر من ذلك . فغض الطرف عما فى النفس غض له عما فى غيرها . ولذلك فقد عقد العزم على أن يجرى على نفسه تحليلاً منهجياً متخذاً من أحلامه مادة هذا التحليل .

وليس من اليسير على من لم يختبر عملية التحليل النفسى بنفسه أن يدرك خطورة ما اعتزمه فرويد ، وما اقتضاه إنجاز عزمه من شجاعة وصبر ونضال مرير . ويكفى أن نذكر أن كل عملية تحليل نفسى تصطدم بمقاومة عنيدة طبيعية عند كل إنسان ، تحول دون الاستبصار بما يدور فى أعماق النفس ، وتصدر عن الإشفاق من مواجهة الحقيقة ، ويقتضى الظهور على هذه المقاومة عملا متواصلا من جانب الطبيب يدوم شهوراً طويلة . وقد قام فرويد بهذا النضال وحده وأنفق فيه نحو ثلاث سنوات خرج منها بمعرفة وكتاب . فأما المعرفة فقد استكمل فهمه للنمو النفسى أثناء الطفولة واكتشف عقدة أوديب . وفطن للدور الذى تقوم به التخييلات فى نشأه العصاب فاستقامت نظرته فى علية الأمراض النفسية . وأما الكتاب فهو « تفسير الأحلام » الذى يعتبر فى المحل الأول ثمرة هذه التجربة الفريدة .

* * *

يتضح مما سبق ما لكتاب تفسير الأحلام من أهمية تضعه فى مصاف المؤلفات التى تعتبر فى المرتبة الأولى من الإنتاج الفكرى على مر العصور ، وقد ترجم هذا الكتاب إلى معظم اللغات الأوربية وبقيت المكتبة العربية ينقصها هذا الأثر الخالد .

ولا شك أن ضخامة المجهود التى تتطلبها ترجمته والصفات التى يجب توافرها فيمن يقدم عليها كانت سبباً فى الإحجام عن نقل هذا الكتاب إلى العربية حتى الآن . ذلك أن هذا الكتاب يزخر بثروة من الثقافة الغربية الحديثة والقديمة ، اليونانية اللاتينية ، جعلت نقله إلى العربية نقلا صحيحاً أمراً مستحيلا ما لم يكن المترجم قد اكتسب هذه الثقافة اكتساباً أصيلا . ثم إن فرويد على الرغم من أنه لم يكن فيلسوفاً محترفاً إلا أن قدرته على الجدل العميق بلغت فى بعض أجزاء هذا الكتاب مبلغاً يقتضى أن يكون المترجم رجلا قد مارس التفكير الفلسفى . على أن العقبة الكبرى فى نقل هذا الكتاب نقلا أميناً تنشأ من أن موضوعه يدور حول مسائل لا بد لمن أزمع نقلها من أن يكون قد اختبرها خبرة أصيلة . وبعبارة قصيرة لا بد لمترجم هذا الكتاب من أن يكون محللاً نفسيًّا .

وقد اجتمعت لزميلى مصطفى صفوان هذه الصفات جميعاً . فقد تدرب على التحليل النفسى فى معهد باريس وحصل على إجازته ثم مارسه منذ عدة سنوات . وهو فيلسوف تعمق دراسة الفلسفة ودرس الآداب الأوربية القديمة والحديثة فضلا عن امتلاكه للغتين الألمانية والعربية امتلاكاً أكيداً . وقد أنفق فى هذا العمل الضخم زهاء ثلاث سنوات كنت أرقبه أثناءها وأتتبعه مشفقاً أحياناً مما يتطلبه الاستقصاء الدقيق لكل عبارة من المشقة والجهد ، ولكنى كنت دائماً سعيداً فخوراً به .

وفى يقينى أن صدور هذا الكتاب فى اللغة العربية يعتبر حدثاً ثقافياً عظيمًا فى تاريخ المكتبة العربية . وبين يدى القارئ الدليل على ما أقول .

مصطفى زيور
دكتور فى الطب
أستاذ علم النفس بجامعة عين شمس
عضو الجمعية الدولية للتحليل النفسى

كلمة المترجم

يقرأ القارئ فى هذه الترجمة الكتاب الذى قال عنه سيجموند فرويد : « إنه يحوى أثمن الكشوف التى شاء حسن الطالع أن تكون من نصيبى ؛ فمثل هذا الحدس لا يأتى العمر مرتين »[1] .

ونستطيع أن نقول دون أن ندعى الكشف عن ماهية هذا الحدس بل لعلنا لا نعدو أن نجمل الأثر الأول الذى يخرج به من هذا الكتاب القارىء غير المتأثر بسوابق الرأى (وهى كثيرة) : إن فرويد يرينا فى « تفسير الأحلام » أن الحلم كلمة وأنه إذن يفترض لغة على حسب التفرقة التى أذاعها فرديناند دى سوسير فى مطلع هذا القرن : فاللغة نظام اجتماعى وأما الكلام فهو الفعل الذاتى الذى يطوع هذا النظام لمقاصده وإن خضع له . واللغة بذلك سابقة على الكلام سبق المجتمع على الفرد ؛ فهو منذ ولادته يندرج فى شبكة من القرابة يختلف نظامها باختلاف المجتمعات كما أنه — بما هو إنسان — لا يستقيم له مفهوم بغير تصور القاعدة أو القانون وتصور القاعدة أو القانون يفترض كثرة الأطراف .

بيد أن قولنا : « إن الحلم كلمة » قد يبدو مبهماً أو مشكلا ؛ لأننا نعلم أن الحلم يتألف أكثر ما يتألف من صور مرئية لا من أصوات . ولقد يتبادر إلى الذهن أننا إنما نعنى بهذا القول أن الحلم — كالرسم — ربما كان يعرب بصوره عن شىء ما . سوى أن قليلا من التدبر كفيل أن يرينا أن فكرة «التعبير» هذه يمكن أن تقال عن كل شىء : فاللغة تعبر ، والموسيقى وجميع الفنون تعبر ، وربما جاز أن نقول بمعنى ما : إن اجتماع السحب فى السماء « يعرب » عن قرب العاصفة — وإنا لنعلم أن الطبيعة بأسرها قد استحالت بالفعل فى نظر بعض الفلاسفة إلى نظام من العلامات . ومعنى ذلك أن فكرة التعبير — وهى التى يمكن أن تقال عن كل شىء — لا تفيد فى تخصيص أى شىء . فهذه الفكرة ليست فى الحقيقة تصوراً علمياً بالمعنى الصحيح ، بل الأصدق أنها تدخل فى عداد تلك التصورات التى يصدق عليها التشبيه الذى ضربه هجل فى صدد مطلق شللنج : تشبيه الليل الذى كل البقر فيه أسود .

---

(١) من مقدمة الطبعة الثالثة لترجمة بريل الإنجليزية .

والواقع أن المماثلة بين الحلم والرسم — وهى المماثلة التى يجرنا إليها تألف الحلم فى الغالب من الصور المرئية — إنما تقوم على أساس موهوم . ولو نظرنا إلى الحلم نظرتنا إلى لوحة مصورة لوجدناه شيئاً لا معقولا ، لا يحمل أقل أثر من المعنى . وإنما الواجب أن ننظر إلى رسوم الحلم نظرتنا إلى تلك الرسوم التى يتألف منها اللغز المصور والتى يتعين علينا حلها ، فإن فعلنا ارتفع خلوها الظاهرى من المعنى وربما تكشف لنا بيت من أجود ما جاد به الشعر وأفصحه[١] . أو بعبارة أخرى : إن صور الحلم إنما تشبه رسوم الكتابة الهيروغليفية أو غيرها من الكتابات المصورة وإن موقف من يفسر الحلم لا يختلف فى شىء من موقف العالم اللغوى حين يريد أن يحل للمرة الأولى نصًّا مكتوباً بكتابة مصورة لم تفك رسومها من قبل ، وتفسير الحلم إنما يعنى قراءته . وهذا التقريب الذى يصادفه القارئ مراراً على صفحات « تفسير الأحلام » بين الحلم والكتابة المصورة يجب ألا يؤخذ مأخذ المماثلة الغامضة ، إنه ينم عن اتفاق فى الجوهر . بل إن فرويد ليمد التقريب إلى التفاصيل حتى أنه يجد فى الحلم ما يضارع استخدام «المخصِّصات» فى الكتابة الهيروغليفية (أنظر ص ٣٣١) ، وإنه ليقول لنا فى مقال كتبه سنة ١٩١٣[٢] : « إنه إذا كان هذا التصور لمنهج الحلم فى التصوير لم يلق متابعة حتى الآن فلأن المحللين النفسيين يجهلون كل الجهل ما هو الموقف الذى قد كان يقفه أحد علماء اللغة لو أنه واجه مشكلة من قبيل تلك التى يواجهنا بها الحلم وما هى العدد التى قد كان يتوسل بها إلى حلها . »

الحلم — إذن — كلمة وتألفه من صور مرئية لا يخرجه عن كونه كذلك ، كل الأمر أنه يدعونا إلى أن نزيد قضيتنا تحديداً فنقول : إنه كلمة أو نص مكتوب بكتابة مصورة . وإذا كان الأمر كذلك وجب أن تكون هناك لغة هى اللغة المستعملة فى الأحلام — بحسب التفرقة التى سبقت الإشارة إليها — وهذه اللغة يجب أن تدرس من النواحى الثلاث التى تدرس منها اللغة عادة ، أى فى نحوها وبلاغتها ومفرداتها . فهل الأمر كذلك ؟ نعم ، وهذه الدراسة على التحديد هى ما يقوم به فرويد فى الفصل السادس من « تفسير الأحلام » — وهو أطول فصوله وعصب الكتاب جميعاً — بحيث يسعنا أن نقول بحق : إن فرويد — فى

---

(١) أنظر حديث فرويد الصريح فى هذا الصدد ، فى مطلع الفصل السادس

(٢) بعنوان « حقوق التحليل النفسى على الاهتمام العلمى » — وهو مقال نشر باللغة الإنجليزية فى المجلد الثامن من الطبعة الإنجليزية الأخيرة لمؤلفات فرويد الكاملة ، وفيه يمدد فرويد ما يستطيع التحليل النفسى أن يسديه إلى العلوم المختلفة — ومن بينها علم اللغة — وما يستطيع استعارته منها .

هذا الفصل — قد عرف الإنسان بلغة رغبته مثلما عرفنا أرسطو فى منطقه بلغة الإنسان العارف . ولا غرو إذن (كما لاحظ أستاذ هوچاك لاكان) أن كانت للتحليل النفسى قيمة البشير بالحركة التى يحمل عصرنا بأسره طابعها ، حركة اكتشاف الإنسان لعلاقته باللغة[١] . ولكنا نترك ذلك إلى إجمال النتائج التى تنتهى إليها هذه الدراسة .

ماذا عن نحو الحلم ؟ [٢] إن فرويد يرينا أن الحلم لا يكاد يعرب عن علاقة من العلاقات سوى علاقة الشرط أو العلية . وهو يتوسل إلى الإعراب عنها بالتعاقب . فإن ورد حلم فى أعقاب آخر غلب أن يكون الحلم الأول معادلا لجملة شرط يكون الثانى جوابها — وإن لم يكن الأمر كذلك دائماً . وسيجد القارئ مثالا على ذلك فى صفحة ٣٢٥ . وهناك — عدا هذا — علاقة التشابه التى تعرب عنها لغتنا العربية بالكاف وكأن وما إليهما : هذه أيضاً يملك الحلم وسائله فى تصويرها (أنظر ص ٣٣٠) . وأما سائر العلاقات كالاحتمال والنفى والضدية فهذه لا يكاد يعرف الحلم طريقة ما فى الإعراب عنها بل يغفلها إغفالاً . ومعنى هذا أن الحلم فقير كل الفقر فى نحوه ، وهو فى ذلك يشبه كثيراً من الكتابات المصورة التى تقصر جل اهتمامها على الإعراب عن دوال المعنى مغفلة دوال النسبة .

ولكن يعوض عن هذا الفقر فى النحو ثراء بلاغى يفوق التصور . فما من صورة من الصور البلاغية التى تعرفها اللغات النهارية إلا وجدناها فى الحلم . وسيرى القارئ حلماً (هو حلم أوپرا ڤاجنر ، أنظر ص ٣٥٠) لم يكن منهجه شيئاً آخر سوى الاستعارة ، وما أن انتبه المفسر (وأعنى فرويد) إلى ذلك حتى خرج له من وراء فساد الحلم الظاهر مقال مفهوم كانت تقابل فيه الحالمة بين حبها المكنون وحب غريمتها المكشوف . وأما السبب فى هذا الالتجاء المستمر إلى الاستعارات وضروب الكناية والمجاز المرسل المبثوثة فى الشعر والأغانى الشعبية وغيرها فيذكره فرويد فى القسم د

---

(١) نرجو أن تجد اللغة العربية من يترجم إليها مؤلفات دى سوسير وتروبتسكوى وليڤى ستروس ودوميزيل وغيرهم ممن لا يستغنى عن أعمالهم إذا أردنا أن نجارى الثورة الحديثة فى علوم الإنسان .

(٢) من الجلى أننا لا نتحدث هنا عن النحو بتعريفه الضيق الذى يقصره على دراسة الإعراب وحركاته (فلا محل للحديث عن حركات الإعراب ونحن بصدد كتابة مصورة وإن اشتمل الحلم على وسائل تعادل بعض الحركات الصوتية مثل رفع الصوت للتوكيد أو اصطناع لهجة معينة ، أنظر ص ١٩٥ و ص ٥٨١) بل بالمعنى الأعم الذى دعا إليه بيننا الأستاذ إبراهيم مصطفى والذى يفيد دراسة طرق ترتيب المقال على حسب العلاقات بين المعانى .

من الفصل السادس ؛ كما أنه يزيد فيرينا كيف كان لصورة البرج فى ذلك الحلم تركيب عطف البيان . ونستطيع نحن أن نجد فى إثره الرمز والمقابلة والتشبيه والحذف وإطلاق اسم العلم فى مجرى الصفة واستعمال القليل للدلالة به على الكثير . بل إن الحلم بوجه عام ليسرف فى استخدام الصور البلاغية إسرافاً هو الذى يؤدى إلى هذا العطل الظاهرى من المعنى على نحو ما يقع فى شعر السرياليين[١] . ويعين على هذا أنه إذا كان هناك أسلوب نستطيع أن نقول : إنه أسلوب الحلم بالذات ، فذلك هو الحذف ، والحذف المخل . بل نستطيع أن نقول بوجه عام : إنه إذا كان المحللون يفهمون مرضاهم فباستنادهم إلى معرفتهم برمزية المحذوف فيها لا يقل أهمية عن المذكور بل يزيد خطراً . فإذا أراد القارئ أن يعلم السر فى هذا الإسراف البلاغى من جانب الحلم قلنا فى إيجاز : إنه الرقابة ؛ فأنت إذا تحدثت وأنت تشعر بأن ثمت رقيباً على كلماتك كان أول ما تعمد إليه هو الحذف واستخدام الألفاظ فى غير مواضعها ، وإذا كان هناك تعريف يجمع بين ضروب الأشكال البلاغية كالمجاز المرسل أو الكناية أو ما إليهما ، فذلك هو كونها استعمالا للألفاظ فى غير مواضعها .

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى دراسة مفردات الحلم أو — بعبارة أدق — إلى ما يسميه اللغويون الغربيون « دوال المعنى » ، كان أول ما يصادفنا هو الرموز التحليلية بالمعنى المحدود (كالملك رمزاً للأب أو الرحيل رمزاً للموت . . . إلخ) . فهذه الرموز هى الدوال الأساسية فى لغة اللاشعور [٢] ، وإنا لنسمعها دائماً أبداً فى حديث الإنسان الليلى (وأعنى الحلم) كما فى أعراض مرضه وشعره وأساطيره . . . إلخ . فإذا تركنا هذه وجدنا أن الحلم إنما

---

(١) كما لاحظه العالم اللغوى بنفينيست فى مقال عنوانه « ملاحظات حول وظيفة اللغة فى الكشف الفرويدى » — وهو مقال ظهر سنة ١٩٥٥ فى العدد الأول من مجلة الجمعية الفرنسية للتحليل النفسى التى يرأس تحريرها الدكتور جاك لاكان : La Psychanalyse . ونعلن بهذه المناسبة عن أسفنا إذ حالت الظروف دون أن تصلنا مقدمة وعدنا الأستاذ لاكان أن يجيبنا فيها عن سؤال وجهناه إليه لأننا نعتقد أنه الرجل الوحيد بين معاصرينا الذى يستطيع الإجابة عنه، وهو : ما هو هذا الحدس الذى يقول فرويد : إنه لا يأتى العمر مرتين؟ ونأمل أن نتمكن من نشر هذه المقدمة فى طبعة ثانية .

(٢) غنى عن البيان أننا نقول أحياناً « لغة الأحلام » بمعنى اللغة المستعملة فى الأحلام ، وهذه اللغة تصطنعها أيضاً الأعراض الهستيرية والقهرية وغيرها ، فهى لغة اللاشعور حيثما كان للاشعور نصيب ، بحيث نستطيع أن نعد الحلم والعرض الهستيرى أو القهرى لهجات مختلفة منها تمكن ترجمة بعضها إلى البعض الآخر — كما يبينه فرويد فى المقال الذى سبقت الإشارة إليه . وكل الفرق أن بنية المادة الدالة تختلف : فما يقوله الحالم بالصور يقوله الهستيرى بجسمه وهكذا .

ينسخ الاستعمال الصوتى والمعنوى للدوال المتضمنة فى لغة الحالم النهارية . سوى أن الحلم يفاجئنا ههنا بتلك الظاهرة : ذلك أنه إذا كان هناك أمر يميز اللغات النهارية فهذا هو ما سماه أحد اللغويين المحدثين بحق ظاهرة « الفرار من الاشتراك »[١] ، بمعنى أن اللغة لا تمل من ابتداع الوسائل للتفرقة بين الدوال تجنباً للاشتراك وازدواج المعانى . ومن الحق أن اللغات النهارية مهما أمعنت فى هذا الاتجاه لا تبلغ أبداً إلى القضاء على اتساع اللفظ الواحد للمعانى المتعددة ؛ فلقد قدر على الكلمة أن تكون معقد معانى متعددة ، كما يقول فرويد (ص٣٤٩)، وهذا الاتساع وحده هو الذى يطوِّع اللفظ للمقاصد التى يسخره لها الكلام[٢]، ولكن الذى يهمنا الآن هو أن لغة الأحلام تفلت كل الإفلات من هذا « الفرار من الاشتراك » ، بل هى تمعن فى الاتجاه المخالف : فلا حد للمعانى التى يمكن أن تحملها صورة الحلم ، وهذا هو ما سماه فرويد ظاهرة « التكثيف » . ولو رجع القارئ ههنا إلى أحد الأمثلة على ذلك ، كالحلم المعنون « حلم الخنفساوين » (ص ٣٠٢)، لخيل إليه أن صورة الخنفساء بكل ما تكثف فيها من المدلولات إنما كانت الرسم الهيروغليفى الذى يعكس كل رغبات الحالمة ومخاوفها فى صورة غريبة عنها ، ولخيل إليه بوجه عام أنه يواجه فى الحلم جميع المادة الدالة وقد تركت لنفسها فى « حالة همجية » . ولا يقف إفلات الحلم من قانون الفرار من الاشتراك عند هذا الحد ، بل هو يتناول أيضاً مادة الدوال أو بنيتها الصوتية بلعب يؤلف بحق ما يشبه « الكيمياء اللفظية » مثلما تصنع النكات (أنظر الأمثلة على ذلك فى ص ٣٠٩ وما بعدها) ؛ وأما السبب فى هذا كله فيرجع بعضه إلى غياب الآخر أو المخاطب فى الحلم بعض الغياب — وإن لم يكن كله كما يتبين من بقاء الرقابة — وارتفاع القاعدة أو القانون بقدر غيابه [٣] .

فإذا أردنا أن نجمل الكلام السابق عن خصائص لغة الحلم قلنا : إنها لغة تتميز بالفقر النحوى مع الإعمال المفرط للحذف فى ترتيب السياق ، ثم بالثراء البلاغى ، فالتكثيف المعنوى .

---

(١) Joseph Tubiana, "Agencement et ambiguité en phonologie", Cahiers F. de Saussure, 1952.

(٢) ليتأمل القارىء المعانى التى لا حصر لها التى يمكن أن يلقاها اللفظ الواحد (وليكن « الشمس ») فى استعمالاته على السنة البلغاء وغيرهم : فالشمس قد تكون المحبوبة وقد تكون الجمال أو الحسن وقد تكون الملك أو المصباح أو الحياة إلى آخره .

(٣) وأما السبب الآخر والأهم فهو انحطاط الرمزى إلى المتخيل نتيجة لارتداد الأنا إلى وظيفته النرجسية . ولا يتسع المجال لشرح هذه التفرقة بين الرمزى والمتخيل — وإن كان المحللون أقرب الناس إلى فهمها فخبرتهم تريهم دوماً كيف تعامل الألفاظ معاملة « الموضوعات » .

وههنا نترك الإجابة عن بعض الأسئلة التى ربما جالت بذهن القارئ ، كأن يسأل : ما هى الصلات بين هذه اللغة التى يصطنعها الإنسان فى خطابه الليلى وبين لغاته النهارية ، بين هذه الرمزية وتلك ؟ كيف نوفق فى بناء واحد بين هذه النظرة إلى اكتشاف اللاشعور باعتباره اكتشافاً لغوياً بحتاً لم تختلف خطوات صاحبه فى الوصول إليه مما قد كانت تكونه خطوات العالم اللغوى وبين الآراء الذائعة — وحدها — عن فكر فرويد ، كاتجاهه الدينامى وما يعزوه من الأثر الحاسم إلى تاريخ الطفولة وحياتها الجنسية [١] ؟ ونترك للغويين والنقاد أن يتبينوا كيف يمكننا تعمق لغة اللاشعور ودوراتها من أن نزيد فهما للتراكيب الدينامية للأسلوب ومقوماتها الوجدانية[٢] . كما نترك للفلاسفة أن يستخرجوا المغزى الذى قد يرونه إذ يرون الإنسان مسكوناً بلغة تأسر رغبته وفيها تولد هذه بما هى رغبة إنسانية .

نترك كل هذا لأننا إنما أردنا بالكلمة المتقدمة أن نشعر القارئ بتلك القضية : أن الأحلام — كالشعر — لا تترجم . ولقد كان ذلك رأى فرويد الذى أعرب عنه. فإذا كان كتابه « تفسير الأحلام » قد ترجم مع ذلك إلى معظم لغات العالم الحية فلا يرين القارئ فى ذلك إثباتاً للضد كإثبات الحركة بالمشى ؛ لأن المترجمين اتبعوا فى العادة إحدى طريقتين : فهم إما أسقطوا بعض الأحلام التى أوردها المؤلف إسقاطاً وإما استبدلوا بها أحلاماً من عندهم ومن لغاتهم . ولكن هذه الاستباحة إن جازت والكتاب فى أوائل سيرته لا تجوز اليوم بعد أن صارت له مكانة الكتب المأثورة : هذه كانت الصعوبة الكبرى فى ترجمة « تفسير الأحلام » . ولم أجد لها إلا حلا واحداً : وهو أن أترجم الأحلام وتفسيراتها ترجمة حرفية ؛ فإن كان الحالم قد اعتمد فى تصويره على تعبير دارج يتضمن استعارة أو كناية أو غيرهما ترجمته كما هو ونبهت عليه وفسرت وجه الاستعارة أو الكناية إذا رأيت داعياً إلى ذلك ؛ فإن أعمل التورية نصصت عليها ، أو استغل الاشتراك الذى فى أحد الألفاظ وضعت اللفظ الأصلى بعد كل ترجمة من ترجماته المختلفة ، فإن كانت الخاصة المستغلة هى الجناس بينته ، وهكذا . ولا شك فى أن النص يفقد بذلك الشىء الكثير من طلاوته ولطفه — كما يقول جيمس ستراشى الذى اتبع ذات المنهج صادراً عن ذات السبب — بل

---

(١) وهى أسئلة حاولنا أن نجيب عنها فى محاضرة ألقيناها بدار نقابة الصحفيين بدعوة من الجامعة الشعبية .

(٢) أنظر أيضاً بنفنيست ، ذات المرجع .

يفقد الكثير من قدرته على الإثارة والإيحاء والإقناع . ولكن القارئ يرى الآن كيف كان ذلك بعضاً من الشر الذى ليس منه بد .

وعدا هذه الصعوبة الناشئة عن طبيعة الكتاب المترجم أو — على الأدق — عن طبيعة موضوعه ، كانت هناك صعوبة أخرى تتصل بموقف المترجم إلى العربية ، والذى أعنيه بهذا القول هو مشكلة المصطلحات : هذه لم تكن بالصعوبة البالغة ؛ فقد وجدت الطريق ممهداً أمامى بفضل من سبقوا إلى الترجمة فى مجال علوم النفس والتحليل النفسى بنوع خاص ، ولهذا كان واجباً علىّ أن أوجه إليهم شكرى على هذه الصفحات ، وإذا كنت لا أذكرهم بأسمائهم فلأن أعمالهم قد سبقت أيضاً إلى التعريف بهم . سوى أن من الصعب مع هذا على مترجم فى موقفى ألا ينص فى هذا المعرض على الجهود التى بذلها الأستاذ يوسف مراد ؛ فقد كان بالقاموس الذى وضعه بمعاونة الدكتور عبد المنعم المليجى والدكتور صبرى جرجس أول من أرسى هذه المصطلحات التى صارت اليوم تراثاً مشتركاً . وقد كنت آخذ بالترجمات الموضوعة رغم ما قد يخالطها من قصور لا أظن إلا أن واضعيها كانوا أول المنتبهين إليه . ولكن هذا الالتزام بالقديم لم يمنعنى من التجديد إذا دعت الحاجة إليه : كأن أكون انتبهت إلى مرادف لم ينتبه إليه من قبل أو كأن تكون الترجمة الموضوعة قاصرة قصوراً لا يطاق عن نقل المفهوم المراد أداؤه أو خاطئة خطأ . ولقد رأيت الضرورة تدعو إلى شرح بعض المصطلحات الجديدة ولكنى لم أشرح شيئاً من القديم . كما أننى — وقد بقى المستحدث قليلا بالقياس إلى الموضوع من قبل — لم أر داعياً إلى أن أردف بالكتاب ثبتاً بالمصطلحات . هذا ، وقد كنت على الجملة — فيما أخذت وفيما ابتدعت — أوثر القريب على الغريب والاشتقاق على التعريب وأما النحت فلم أكد أعمله قط .

بعد هذه الملاحظات المتعلقة بترجمة الكتاب أتحدث عن سياستى فى تقديمه .

إن من الأمور المعلومة أن « تفسير الأحلام » كان أحد الكتب القليلة التى ظل فرويد يعنى بتعديلها زمناً طويلا ، يحذف حيناً ويضيف أحياناً أخرى [1] . والترجمة التى يقرأها القارئ فى هذه الصفحات تنقل نص الطبعة الثامنة والأخيرة — وهى من غير شك أوفى الطبعات لأن المحذوف فى خلال التعديلات المشار إليها قليل بالنسبة إلى ما أضيف . ثم حتى هذا المحذوف كثيراً ما أوردته ، بل العبارة المعدلة ذكرت صيغتها قبل التعديل كلما رأيت

---

(١) أنظر مقدمات الطبعات الثمانى التى ظهرت فى حياة فرويد .

لذلك دلالته بالنسبة إلى فكر المؤلف، بحيث يسع القارئ الاطمئنان إلى أن هذه الصفحات قد أودعت « تفسير الأحلام » فى صورة من أوفى ما يكون .

بقى بعد هذا أمر آخر ، وأعنى به التضمينات التى لا حصر لها والتى يجدها القارئ منتثرة فى خلال الصفحات المقبلة : تضمينات ترد فى خلال تفسيرات الأحلام ولا نعود ندهش لها بعد الذى سمعناه عن كثرة التجاء الأحلام إلى الاستعارات المبثوثة فى تعبيرات اللغة الدارجة وتراثها الشعرى وأغانيها الشعبية وأمثالها الحكمية . . . إلخ . ، ثم تضمينات لفرويد هى خاصة من خصائص أسلوبه . هذه وتلك لم تترك فى بعض الأحيان مفراً من شرحها شرحاً قصيراً إذا أردنا أن نضع القارئ فى « جو الكتاب » — وهو جو ينبعث عند المؤلف عن ثقافة أوربية أدبية منقطعة النظير ، متمثلة إلى أبعد الحدود . ولم يكن بد كذلك من أن نجلو بعض إشارات المؤلف : فهى ربما اتجهت إلى جوانب من تاريخ الأمم الغربية وأساطيرها قد لا تكون للقارئ العربى ألفة تامة بها أو إلى وقائع تمس حياة المؤلف الخاصة قد لا يعلمها القارئ . وفيما عدا هذه الهوامش التى إنما تهدف إلى تيسير متابعة المؤلف أو جلاء الغامض من إشاراته ، لن يجد القارئ شيئاً مما يشبه الشرح النظرى أو التعليق .

وقد كنت فكرت فى أن أخرج عن هذه القاعدة فيما يتصل بالفصل السابع والأخير — وهو « أصعب ما كتب فرويد وأشده تجريداً » [1] — سوى أنى رأيت أن مثل هذه الشروح لكى تنى الغرض المطلوب لا يمكن إلا أن تطول طولا لا تطيقه إمكانيات النشر ولا صبر القارئ . ثم ليتها بعد هذا كانت تنى ! فلا غنى لمن أراد أن يستوعب هذا الفصل من أن يقرأ رسائل فرويد إلى صديقه ڤيلهلم فليس ، ففيها يرى فكر فرويد وهو يتكون خطوة فخطوة فى خلال الحقبة السابقة على كتابة « تفسير الأحلام » والمعاصرة لها ، وفيها يجد على الأخص مشروعاً أرسله فرويد إلى صديقه وأودعه جملة الأفكار التى تؤلف بحق نواة هذا الفصل . وإذا كان جيمس ستراشى — بقدر ما أعلم — هو أول من استطاع أن يزودنا بترجمة فاهمة مفهومة لهذا الفصل ، فلا يعود ذلك إلى تفوقه الأدبى غير المنازع وحسب ، بل يعود على الأخص إلى أن هذا الفصل لم يتسن فهمه إلا بعد أن عرفت هذه الرسائل ونشرت (١٩٥٠) . وهناك بعد هذا سبب آخر يقتضينا أن نقرأ هذه الرسائل :

---

(١) إرنست جونز ، « سيجموند فرويد » ، الجزء الأول ص ٣٩٣ .

ففيها نجد صورة من حياة فرويد الخاصة . والإلمام بدقائق هذه الحياة أمر لا يستغنى عنه من أراد أن يستوعب تفسيرات المؤلف لأحلامه . وهذا الاستيعاب بدوره أمر ضرورى لسببين : فهناك أولا ما تشتمل عليه هذه التفسيرات من القيمة الأدبية (وأعنى على التحديد الإنسانية) فإن الذين يعلمون لأى المخاطر يتعرض كل من أراد أن يتعرف نفسه ويعرف غيره بها وكيف يسهل أن تنزلق محاولته إلى التبرير المتصل أو الاستفزاز الماسوشى أو تغذية العُجْب الذى لا يشبع ، أى — فى النهاية — إلى محاولته أن يسرق من غيره صورة نرجسية ، أولئك لا يمكن إلا أن يروا فى حديث فرويد ههنا غاية ما يمكن أن يصل إليه امرؤ من الاتزان بل من الإنصاف لنفسه ولغيره وغاية ما تستطيع أن تصل إليه العبقرية من التخلص من سراب «الأنا» والاقتراب من المعاش المباشر . وأما السبب الآخر والأهم فهو ضرورة هذا الاستيعاب لمن أراد أن ينفذ إلى فكر فرويد ؛ لأنه إذا كانت الحقيقة مهما بلغت موضوعيتها لا تخرجها هذه الموضوعية عن أن تكون مقياساً للعالم كما هى مقياس للمعلوم [1] أو — بوجه أعم — إذا كان تكون الموضوع يتبع دائماً تحقق الذات [2] ، فهذه القضية لا تصدق فى مجال من مجالات المعرفة صدقها فى التحليل النفسى .

بقيت بعد ذلك هنات خفيفة اشتمل عليها النص ولم يكن بد من مداواتها وبخاصة بعد أن صارت هذه المداواة لا تكلف كبير عناء فقد نهض بها ستراشى من قبل : ذلك أن فرويد فى خلال التعديلات التى سبقت الإشارة إليها ربما حذف جملة أو جزءاً من جملة مع أن فى مستأنف السياق إشارة لا تفهم بغير هذا الجزء فلا يكون بد من أن نعيد إدراجه فى النص ، أو هو قد يضيف فقرة ولكنه يضعها فى غير موضعها فلا يكون مفر من التنبيه على ذلك حتى نجنب القارئ حيرة لا داعى إليها — وفيما عدا هذا ذكرنا تاريخ الإضافات

---

(١) إن الحقيقة تبدأ دائماً باعتبارها كلمة العالم ، حقيقته هو التى يضعها فى ميزان الآخرين ، والموضوعية التى تصبح لها من بعد تعنى فى المحل الأول أنها قد صارت جزءاً من العالم الإنسانى ، صارت لغة وعدة وكفاحاً ؛ فالناس يضعون فيها أنفسهم لكى يتفاهموا (فهى لغتهم المشتركة) ويضعون فيها عملهم لكى يصنعوا عددهم (إذا كانت نظرية طبيعية ؛ فكل نظرية طبيعية يجب أن تتسنى صياغتها على ذلك النحو : إذا أردت أن تصنع كذا فافعل كذا وكذا) أو لكى يبنوا نظام مجتمعهم (إذا كانت نظرية سياسية) .

(٢) إن مؤلف هجل الخالد « علم ظواهر الروح » يمكن اعتباره بأسره برهاناً على هذه القضية وشرحاً لقوانين هذه التبعية . والقضية بعد هذا لا توقع فى المثالية كد قد يتبادر إلى الذهن ، فنحن نعلم أى أثر كان للمؤلف المشار إليه فى نشأة الماركسية التى يمكن أن نعدها بحق نظرية تكون العالم البروليتارى من خلال تحقق الإنسان بصراعه الطبقى لأجل الاعتراف به .

المختلفة كلما رأينا أن لذلك أهمية أو أنه يعين القارئ على متابعة النص . كذلك قد يستشهد فرويد بمؤلف ولكنه لا يعنى بذكر رقم الصفحة (فذكرناه) أو يذكر الرقم الخطأ (فصححناه) . وأقول بهذه المناسبة : إنى رأيت من الأفضل أن أترك تبويب فرويد لقائمة مراجعه متبعاً التبويب الذى وضعه ستراشى . فقد عنى فرويد بأن يجمع كل المؤلفات المتعلقة بموضوع الحلم ثم قسمها قسمين : مؤلفات ظهرت قبل « تفسير الأحلام » سنة ١٩٠٠ وأخرى ظهرت بعده . فأما ستراشى فوزعها بين مؤلفات أشير إليها فى خلال النص وأخرى لم ترد إليها إشارة ما . وكل قائمة من هاتين رتبت فيها المؤلفات على حسب الترتيب الأبجدى للمؤلفين ، فإن كان للمؤلف الواحد أكثر من كتاب أو مقال رتبت أعماله بحسب سنى صدورها ، فإن كانت له مؤلفات متعددة فى السنة الواحدة رتبت هذه أيضًا بحسب ترتيبها فى الزمن وأردف تاريخ السنة بحرف أبجدى يدل ترتيبه بين سائر الحروف على السابق واللاحق . ولا تخفى المزية بل المزايا التى لقائمه ستراشى الأولى : فهى — أولا — ستكون بمثابة فهرست بأسماء المؤلفين يغنينا عن تكرار ذكرهم فى الفهرست التحليلى ، ثم هى ستتضمن العدد الكبير من مؤلفات فرويد ومقالاته وقد رتبت بحسب تاريخ صدورها ، وهى — ثالثاً وأخيراً — ستسهل علينا الإشارة إلى المراجع المختلفة : فيكفينا بعد اسم المؤلف أن نضع بين قوسين تاريخ الكتاب أو المقال أو تاريخه متبوعاً بحرف (نختاره من حروف الأبجدية العربية بحيث يوافق فى الترتيب حرف الأبجدية اللاتينية المستعملة فى القائمة) ثم رقم الصفحة أو الجزء فالصفحة — وربما أغفلنا ذكر السنة إذا لم يكن للمؤلف المشار إليه سوى كتاب أو مقال واحد . ولقد وضعت بين معقفين كل ما ورد فى خلال هذه الترجمة من الزيادات وكذلك كل النصوص التى استشهد بها فرويد من اللغات الأجنبية والتى أوردت فى المتن ترجمتها العربية وأسقطتها هى فى الهامش [١] .

هذا ، وإنى وقد أشرت فى الفقرة السابقة إلى هنات عرضت لا أرى محيداً عن النص على أن هذه الهنات لم تحل دون بلوغ الكتاب مبلغاً عالياً من جمال التحرير يجعل منه بحق أثراً فنياً باقياً إلى جانب قيمته العلمية . ففرويد فى كل أحواله — وفى هذا الكتاب بخاصة — كاتب ندر من حاذاه فى ذكاء العبارة ورشاقتها مع حدة وبيان . وقد لا يعلم القارئ أن

---

(١) مخالفاً فى ذلك عادة المترجمين الأوربيين إذ يوردون النص الأجنبى كما هو فى المتن ثم يسقطون ترجمته فى الهامش — إن أرادوا . والحكمة فى هذه المخالفة غير خافية .

مؤلف « تفسير الأحلام » سيد من سادة النثر الألمانى وأن أسلوبه من الأساليب التى بلغت مبالغ الإعجاز ؛ فقد استطاع أن يحفظ للجملة الألمانية كل أصالتها مع إعطائها نقاوة واقتصاداً لاتينيين أو يكادان . ولقد عرف له هذا الفضل فمنح جائزة جوته الأدبية سنة ١٩٣٠ ولا يمنحها سوى أعلام الكتاب .

* * *

وبعد ، فإنه لواجب يسعدنى أداؤه أن أوجه ههنا أول شكرى وأخلصه إلى والدى ؛ فقد كان يزودنى بقدرته اللغوية كلما خانتنى قدرتى ، آتياً فى كل عبارة بما يكسبها سلامة أو سلاسة ، فلولاه ولولا هذا الجهد الذى بذله مختاراً من غير حساب ما أتى هذا العمل فى الصورة التى تجعله جديراً بأن ينقل إلى الغير — أى ما كان عملا .

وأما أستاذى وصديقى — منذ أن شرفنى بصداقته — الدكتور مصطفى زيور فلست أدرى كيف أشكره إلا بأن أهدى إليه هذا العمل كله . وما أظن بعد ذلك أنى أوفيته حقه ؛ فقد قرأ هذه الترجمة سطر فسطراً مضاهياً إياها بالترجمة التى وضعها جيمس ستراشى بمعاونة آنا فرويد — وهى ترجمة لم يختلف اثنان فى إمكان الثقة بها — وكان لمراجعته هذه ، ناصحاً ومنبهاً ومصححاً ، أكبر الأثر فى تقريب الترجمة الحاضرة من الكمال المنشود . وأنا — إذن — كمن يجازيه ببعض فضله . وأما التشجيع الأدبى الذى عرفته منه دائماً فلم يكن على القطع بأقل مآثره : فبفضله — ماضيا — ولجت مجال التحليل النفسى (حيث كان الدكتور مارك شلومبرچيه أول من قاد خطواتى) وبفضله — حاضراً — أقبلت على هذه الترجمة .

وأما ترجمة ستراشى التى سبقت الإشارة إليها مرات متعددة فيكون جحوداً منى ألا أنص ههنا على دينى الكبير نحوها ؛ فما أظن أن ترجمتى كانت بالغة مبلغها من الدقة والوضوح — أيا كان حظها من هذين — لولا الاستعانة المستمرة بهذه الترجمة الفائقة والاهتداء بهديها . هذا وإن كنت لا أحتاج إلى القول بأننى لم أذهب فى ذلك حتى المدى الذى يجعلنى أنزل الترجمة عندى منزلة الأصل أو أستغنى بها عنه ؛ فمن المقطوع به أن الكتاب المترجم إنما ينتقل إلى القارئ بزاوية الانكسار التى تنشأ عن مروره فى خلال الوسط المؤلف من فهم المترجم وحساسيته (وإن لم ننس أيضاً أن هذه القضية لا تعنى أن « الترجمة خيانة » بقدر ما تنبه إلى أن الأمانة حين تكون فبجهد خاص) . وإنى — إذن —

إذ أشكر لذوى الفضل أثرهم فى محاسن هذه الترجمة لا أفكر أقل تفكير فى أن أخلى نفسى من التبعة فيما قد يكون من معايبها .

وأوجه كبير شكرى من بعدُ إلى الدكتورة هيلده زالوستسر أستاذة اللغة الألمانية بجامعة الإسكندرية ؛ فما منعت عنى معرفتها الغزيرة بآداب اللغة الألمانية وتعبيراتها الدارجة وما جرى منها بين أهل النمسا وڤيينا بنوع خاص . كما أشكر طالبى بالأمس وصديقى اليوم وأول قرائى أحمد فائق ؛ فقد قرأ الترجمة وهى مخطوط فأعانتنى ملاحظاته على تبين مواطن الشبهات فى أداء المعانى فرفعتها ، هذا فضلا عن معاونته السخية فى وضع الفهارس وتصحيح التجارب . فأما صديقى عبد العزيز إبراهيم الذى أخذ على عاتقه أن يهيئ المخطوط للمطبعة فلا يقدر جهده إلا من عاناه .[1]

وأما فضل دار المعارف إذ تولت إخراج هذا الكتاب فى الصورة التى تليق بمكانته فى عالم الفكر الغربى وبمكانتها هى فى الشرق الناطق بالضاد ، فأبين من أن يحتاج إلى نص خاص .

* * *

وأخيراً ، فإنى إذ أترك بين يدى القارئ العربى هذا الأثر الذى هو من غير شك أحد الثوابت فيما يسميه شارل دى بوس « سماء الثوابت » لا أملك إلا أن أعرب عن أملى فى أن يكون له بيننا مثل ما كان له فى الغرب من أثر معروف (وإن لم يسبر كل غوره بعد لأنه لم ينقطع) فى تاريخ الحركات الفنية والفكرية والفلسفية وفى علوم الإنسان . ولم لا والكتاب لرجل يرينا فى الحلم كلِما ومن وراء هذا الكلم لغة يجلو غوامضها ويذيع أسرارها ونحن الذين ننتسب إلى قوم جعلوا من اللغة مدار حياتهم الثقافية جميعاً ؟ فمصير الكتاب بيننا ربما كان وقفاً على اختيارنا : أنقبل أن نكون خلف هذا السلف ؟ ولست أدرى ما سيكون من إجابتنا عن هذا السؤال ولكن أيًّا كان الجواب فأهم منه ألا ننسى تلك القضية التى نرى مصداقها فى كل خطوة من هذه الخبرة التى لم يكن مبدعها إلا سيجموند فرويد نفسه (وأعنى التحليل النفسى) : من لم يختر ماضيه لم يجد حاضره .

وللمسئلة بعد هذا وجه آخر : ذلك أن فرويد إذ يرينا الكلمة (أى المعقول بالذات)

---

(١) يحزننا أن ننعى ههنا هذا التصديق ، فقد أبى الموت القاسى إلا أن يختطفه قبل أن يرى ثمرة جهده .

فى عمل الحلم كما فى أعراض المرض [١] ، يرفع أكثف الحجب التى كان يعمى فيها على الإنسان وجهه . فهل نقبل المخاطرة فى آفاق الوعى والتحقيق الإنسانيين غير المشروطين ، أى بغير التحصن بميكانيكيات الدفاع كما يقول المحللون النفسيون ؟ هذا أيضاً سؤال لا أعلم جوابنا المستقبل عنه . ولكن لاننسى تلك القضية الأخرى : من لم يختر مستقبله لم يجد ماضيه .

مصطفى صفوان
عضو الجمعية الفرنسية للتحليل النفسى

(١) مثلما يرينا هجل إياه فى العمل وفى الألم بوجه عام .

DIE TRAUMDEUTUNG

تفسير الأحلام

"FLECTERE SI NEQUEO SUPEROS, ACHERONTA MOVEBO"

« لئن لم أثن السماوات حركت الأخرون » .

---

(١) [بيت من ملحمة الشاعر اللاتينى فرجيل عن وقائع آينياس (الكتاب السابع ، السطر ٢١٣) حيث يرد على لسان الإلهة يونون إذ تعلن عزمها على أن تفسد بكل ما وسعت خطة آينياس فى الفرار بفلول الطرواديين المهزومين وتأسيس مملكة جديدة بهم فى أرض إيطاليا . فهو يفيد استتباب العزم على بلوغ القصد من كل سبيل ، أراد فرويد أن يمثل به ما تبذله الرغبات اللاشعورية من الجهد . والأخرون نهر يعبره الموتى فى أساطير اليونان عند توجههم إلى الدار السفلى ، ثم صار يطلق على الجحيم كافة بآلهته وآهليه ، فهو يقابل فى البيت لفظ « سوپروس » الذى ترجمناه بالسماوات وحقيقة السماوات بآلهتها أو قواها .]

تمهيد

هذا كتاب أحاول فيه أن أشرح تفسير الأحلام ، وأعتقد أنى إذ أفعل ذلك لا أتجاوز دائرة الموضوعات التى يهتم بها علم الأمراض العصبية ؛ ذلك أن البحث السيكولوجى يرينا أن الحلم أول حلقة من سلسلة الظواهر النفسية الشاذة — وهى سلسلة اقتضت الأسباب العملية أن يشغل الطبيب بسائر حلقاتها ، مثل المخاوف الهستيرية والأفكار القهرية والهجاسية. ولا يستطيع الحلم أن يدعى مثل هذه القيمة العملية — كما يتبين من الصفحات القادمة — ولكن هذا عينه إنما يزيد قيمته النظرية من حيث هو نموذج ومثال ، وإن من قصر عن أن يبين منشأ صور الحلم ليجهد عبثاً فى أن يفهم المخاوف المرضية والأفكار القهرية والهجاسية أو فى أن يؤثر فيها تأثيراً شافياً .

بيد أن هذه الصلة التى يدين لها موضوعنا بأهميته هى أيضاً الملومة على ما يتخلل هذا المؤلف من مواطن القصور : فالثغرات التى سوف يلحظ القارئ كثرتها فى هذه الصفحات أيما كثرة إنما توافق على التحقيق تعدد مواضع الاتصال التى تسلم عندها مشكلات الحلم إلى المشكلات الأعم الداخلة فى نطاق علم النفس المرضى — وهى مشكلات لا سبيل إلى معالجتها فى هذا المعرض ويجب أن تفرد لها صفحات أخرى إذا توافر الوقت والجهد وإذا عرضت مادة جديد .

ثم إن خصائص المادة التى أصور بها تفسير الأحلام قد جعلت نشر هذه الصفحات صعباً علىّ كذلك . فسوف يتبين من سياق هذا الكتاب لمَ كانت الأحلام المدونة من قبل فى مختلف المصنفات أو تلك المنقولة عن مصادر مجهولة لا غناء فيها على الإطلاق فيما أقصد إليه . وكان علىّ إذن أن أختار بين أحلامى وأحلام مرضاى الذين أعالجهم بالتحليل النفسى . ولكن منعنى من اللجوء إلى هذه المادة الأخيرة أن عمليات الحلم تتعقد فيها تعقداً غير مرغوب فيه ؛ لدخول الخصائص العصابية عليها . فإذا رويت أحلامى لم يكن مفر من أن أطلع نظرات الغرباء على أكثر مما كنت أود إطلاعهم عليه من دخائل حياتى النفسية ومما يلزم فى العادة كاتباً هو رجل من رجال العلم وليس بشاعر . ذلك هو الشر الأليم الذى لم يكن منه بد ؛ فأذعنت للضرورة مؤثراً هذا الإذعان على النزول عن كل برهان يسند

كشوفى السيكولوجية . ولا غرو مع هذا أن غلبتنى الرغبة فى أن أخفف من غلواء المكاشفة فأضمرت وبدّلت ، وكنت كلما فعلت نقصت قيمة المثال الذى أضربه نقصاً ملموساً لاشك فيه . وكل الذى أستطيعه هو أن أعرب عن أملى فى أن يضع القارئ نفسه فى موقفى الصعب حتى يرفق بى ، ثم عن أملى فى أن أولئك الذين سوف يرون فى أحلامى إشارة ما إلى أشخاصهم لن يفكروا فى أن ينكروا على حرية الفكر — فى حياتى الحالمة على الأقل

مقدمة الطبعة الثانية

لأن تدعو الحاجة إلى طبعة ثانية لهذا الكتاب (وما هو بالكتاب الذى تسهل قراءته) قبل أن تنقضى على نشره عشر سنين — ذلك ما لا يرجع الفضل فيه إلى دوائر المحترفين الذين كنت أوجه الخطاب إليهم فى الكلمة المتقدمة ؛ فلا يبدو أن زملائى من أطباء النفس قد كلفوا أنفسهم كبير عناء من أجل التغلب على الحيرة الأولى التى أشاعتها نظرتى الجديدة فى الأحلام ، فأما الفلاسفة المحترفون الذين صار من عادتهم أن يمروا فى عبارات وجيزة — قل أن تختلف — على مشكلات الحياة الحالمة التى لا يرون فيها سوى ظاهرة تذيل الحالات الشعورية فمن الواضح أنهم لم يلحظوا أن ههنا قد تكون البداية المؤذنة بنتائج لا بد من أن تغير وجه نظرياتنا السيكولوجية تغييراً ، وأما الموقف الذى وقفه المعلقون فى الصحف العلمية فلم يكن يترك للمرء أن يتوقع قدراً آخر لكتابى غير أن يندثر فى صمت مطبق ، على حين ما كانت القلة المقدامة من الأنصار ، ممن يزاولون التحليل النفسى بتوجيه منى ويحذون حذوى فى تفسير الأحلام ويستخدمون تفاسيرها هذه فى مداواة الأعصبة ، ليستنفدوا قط الطبعة الأولى من هذا الكتاب . وعلى هذا أرانى أدين بالشكر لدائرة أشمل من القراء المثقفين ، ذوى العقول المتطلعة ، الذين يحملنى اهتمامهم على العود بعد سنوات تسع إلى هذا الكتاب الصعب وإن كان من وجوه متعددة كتاباً أساسياً .

ويسرنى أن أستطيع القول : إنى لم أجد فيه سوى القليل لأغير منه ؛ فقد ضمنته بعض المادة الجديدة هنا وهناك ، وأضفت إليه بعض التفاصيل استقيتها من خبرتى المتزايدة ، وأردت لقضايای بعض التعديل فى قلة من مواضعه ، ولكن الجوهر فيما تحدثت به عن الأحلام وتفسيراتها وكذلك فى النظريات السيكولوجية التى تخلص من كل أولئك ، هذا الجوهر يظل هو هو ، إنه قد ثبت لمحنة الزمن — من الوجهة الذاتية على الأقل . وإن من يعرف سائر كتاباتى (فى علّية الأعصبة وآلياتها) ليعلم أنى لم أتقدم قط بالرأى غير المحقق على أنه الشىء المحقق وأنى كنت أعدل دائماً من قضايای بما يتفق وتقدم خطای فى مجال المعرفة ، إلا الحياة الحالمة ؛ فقد وسعنى الثبات فيها على ما بدأت . فإنى اشتغلت بمشكلات

الأعصبة سنوات طوالا عرفت فيها الحيرة مراراً واستبهمت على مسالك الفكر كل استبهام أحياناً ، فكان « تفسير الأحلام » دائماً هو الذى يرد إلىّ عندئذ يقيني . ولقد صدر إذن خصومى عن غريزة واثقة حين أبوا متابعتى فى مباحثى الحلم بنوع خاص .

ومادة الكتاب أيضاً — وهى تتكون من أحلام لى نفسى تعدت الأحداث غالبيتها أو أفقدتها أهميتها وبها صورت تفسير الحلم — قد أبدت مثل هذه القدرة على البقاء وعلى مقاومة كل تغيير بعيد الغور . فلهذا الكتاب — فوق ما سبق — مغزى ذاتى آخر ، مغزى لم أدركه إلا بعد أن انتهيت من تصنيفه : فقد تبين لى أنه كان جزءاً من تحليلى الذاتى ، كان استجابتى إلى موت أبى : أى إلى أخطر حادثة ، إلى أفجع خسارة تصيب امرأ فى حياته . وإذ عرفت أن ذلك كذلك أحسست العجز عن أن أطمس معالم هذه الخبرة . وأما القارئ فلقد يستوى عنده بأى مادة يتعلم كيف يقدر شأن الحلم وكيف يفسره .

هذا وقد كنت كلما تعذر علىّ أن أدرج فى السياق القديم ملاحظة لا أجد غنى عنها نبهت على حداثة أصلها بوضعها بين معقفين [1] .

برختسجادن ، فى صيف ١٩٠٨

---

(١) ثم أسقطت هذه المعاقف فى الطبعات التالية [ابتداء من الطبعة الرابعة] .

مقدمة الطبعة الثالثة

لقد انقضت سنوات تسع بين الطبعتين الأولى والثانية لهذا الكتاب ، ولكن لم يكد ينصرم العام حتى لزمت طبعة ثالثة . ولقد أسر لهذا التبدل ، ولكنى وقد أبيت بالأمس أن أرى فى إعراض القراء عن كتابى دليلا على خلوه من كل قيمة لا أستطيع اليوم أن أعد إقبالهم الحاضر عليه شاهداً على كماله .

وبعد ، فها هو ذا « تفسير الأحلام » نفسه لا يتركه تقدم العلم دون أن يغير منه . فقد كتبته عام ١٨٩٩ ونظريتى فى الحياة الجنسية لا تزال طى الغيب ، ولم يكن تحليل الأشكال المعقدة التى تتخذها الأعصبة النفسية قد تجاوز بدايته . وكان أملى إذ ذاك أن يعين تفسير الأحلام على تيسير التحليل السيكولوجى للأعصبة . ومنذ ذلك الحين أحدث الفهم الأعمق للأعصبة تأثيره الرجعى فى نظرتنا إلى الحلم ، فاتسعت نظرية تفسير الحلم فى اتجاه لم أنبه عليه التنبيه الكافى فى الطبعة الأولى لهذا الكتاب : فقد علمتنى خبرتى وكذلك مؤلفات ڤيلهلم شتيكل وغيره من الكتاب أن أقدر تقديراً أصدق مدى انتشار الرمزية فى الأحلام (أو على الأصح فى التفكير اللاشعورى) ومقدار أهميتها . وهكذا تجمعت فى خلال هذه السنوات حقائق كثيرة تتطلب الاعتبار . وقد حاولت أن أحسب لهذه التجديدات حسابها بإضافات متعددة ضمنتها النص وهوامش ألحقتها به . فإذا كانت هذه الإضافات تهدد فى بعض المواضع بتمزيق الإطار الذى وضع فيه الكتاب ، أو إذا لم أكن وفقت فى كل المواضع إلى رفع النص الأصلى إلى مستوى معرفتنا الحاضرة ، فرجائى هو أن يغفر القارئ هذه المثالب ؛ فإنما هى النتائج الناجمة عن نمو علمنا نمواً مسرعاً فى الآونة الحاضرة وعلامات عليه . بل لقد أجازف إلى التكهن بنوع الاتجاهات الأخرى التى سوف تفترق فيها الطبعات المستقبلة لتفسير الأحلام — إن احتاج الأمر إلى طبعة مستقبلة — من هذه الطبعة : ففيها سوف يتحتم من جهة لصوق أوثق بالمادة الوافرة المضمنة فى الشعر والأساطير والعرف اللغوى والآداب الشعبية ، ومن جهة أخرى سوف يتحتم التعرض للعلاقات بين الأحلام والأمراض العصبية فى تفصيل يربو على ما اتسع له الإمكان هنا .

هذا ولقد بذل لى الهر أوتو رانك معاونة قيمة فى اختيار المادة المضافة ، واحتمل وحده عبء مراجعة التجارب . وإنى لأشكر له وأشكر للكثيرين غيره مشاركاتهم وتصحيحاتهم .

فيينا ، فى أبريل ١٩٢١

مقدمة الطبعة الرابعة

فى خلال العام الماضى (١٩١٣) أخرج الدكتور أ. أ. بريل — وهو من مدينة نيويورك — ترجمة إنجليزية لهذا الكتاب :

(The Interpretation of Dreams, G. Allen & Co., London).

ولم يقتصر الدكتور أوتو رانك هذه المرة على القيام بتصحيح التجارب ، بل مد النص كذلك بفصلين قائمين بذاتهما — وهما الملحقان بالفصل السادس .

فيينا ، فى يونية ١٩١٤

مقدمة الطبعة الخامسة

لم يخبُ الاهتمام « بتفسير الأحلام » حتى فى إبان الحرب العالمية ، ولزمت طبعة جديدة وهذه الحرب لا تزال ناشبة . غير أنى لم أستطع الإحاطة بكل ما نشر منذ عام ١٩١٤ ، فلست أعلم ولا الدكتور رانك يعلم بمؤلف أجنبى منذ ذلك التاريخ .

وهنالك ترجمة هنجارية توشك على الظهور ، أعدها الدكتور هوللوس والدكتور فرنتسى . كما أن « محاضراتى التمهيدية فى التحليل النفسى » قد نشرت فى ڤيينا عام ١٩١٦ — ١٩١٧ (نشرها ه . هللر) . وقد خصص الجزء الأوسط من هذه المحاضرات (وهو يضم أحد عشر فصلا) لشرح الأحلام شرحاً أريد به أن يكون أدنى للمبتدئ وأوثق التصاقاً بنظرية الأعصبة من المؤلف الحاضر ، وهو فى جملته بمثابة موجز « لتفسير الأحلام » — وإن زاد تفصيلا فى بعض المواقع .

هذا وقد خانتنى القدرة على أن أجمع العزم على مراجعة هذا الكتاب مراجعة جوهرية كانت تعلو به إلى مستوى النظرات العلمية المعاصرة فى التحليل النفسى ولكنها فى سبيل ذلك كانت تهدم طابعه التاريخى . واعتقادى على أية حال هو أن الكتاب قد أنجز مهمته بعد بقاء قارب العشرين عاماً .

بودابست — شتاينبروك ، فى يولية ١٩١٨

مقدمة الطبعة السادسة

إن الصعوبات التى تحيط بتجارة الكتب فى الوقت الحاضر جعلت هذه الطبعة الجديدة تظهر متأخرة عن الحاجة إليها بزمن طويل ؛ فأعيدت الطبعة السابقة للمرة الأولى دون أن يتناولها تعديل ما . هذا إذا استثنينا قائمة المراجع المثبتة فى آخر الكتاب ؛ فقد أكملها الدكتور أوتو رانك وواصلها .

وهكذا لم يتأيد ما قدرته من أن هذا الكتاب قد أنجز مهمته بعد أن دام قريباً من العشرين عاماً . بل قد أقول على العكس : إن هناك مهمة جديدة تنتظره : فإذا كانت مهمة الكتاب فى الماضى هى أن يزودنا بعض المعرفة بماهية الحلم فعليه اليوم مهمة لا تقل خطراً ، هى أن يدفع أخطاء الفهم العنيدة التى لا تزال هذه المعرفة هدفاً لها .

ڤيينا ، فى أبريل ١٩٢١

مقدمة الطبعة الثامنة

فى الفترة المنقضية بين ظهور الطبعة الأخيرة (السابعة) لهذا الكتاب عام ١٩٢٢ والطبعة الحاضرة جُمعت مؤلفاتى تحت عنوان « كتابات مجمعة » [١] وأصدرتها دار النشر الدولية للتحليل النفسى [٢] . وقد احتوى المجلد الثانى من هذه المجموعة نصاً يعيد الطبعة الأولى من « تفسير الأحلام » بحذافيرها ، بينما ضم المجلد الثالث جميع الإضافات التى ألحقت به من بعد . وأما الترجمات التى ظهرت للكتاب فى أثناء هذه الفترة عينها فتلتزم الصورة المألوفة التى ظهر عليها الكتاب للمرة الأولى فى مجلد واحد . وهذه الترجمات هى : ترجمة فرنسية وضعها مايرسون ونشرت عام ١٩٢٦ بعنوان « علم الأحلام »[٣] فى السلسلة المعنونة « مكتبة الفلسفة المعاصرة »[٤] ، ثم ترجمة سويدية قام بها جون لاندكيست عام ١٩٢٧[٥] ، ثم ترجمة أسبانية وضعها لويس بالليستروس (عام ١٩٢٢) تشغل الجزئين السادس والسابع من الترجمة الأسبانية لمؤلفاتى الكاملة[٦] . وأما الترجمة الهنغارية التى كنت أظنها على وشك الظهور ونحن لم نزل بعام ١٩١٨ فلم تر الضوء حتى اليوم[٧] .

وقد عالجت الكتاب عند مراجعتى إياه لهذه الطبعة أيضاً على أنه وثيقة تاريخية فى جوهره ؛ فلم أدخل عليه من التعديل إلا ما اقتضاه توضيح آرائى وتعمقها . ووفاقاً لهذه النظرة

---

(١) ["Gesammelte Schriften"]

(٢) [Internationaler Psychoanalytischer Verlag]

(٣) ["La science des Rêves"]

(٣) ["Bibliothèque de Philosophie Contemporaine"]

(٤) ["Dromtydning"]

(٥) ["Obras Completas"]

(٦)

(٧) [ولكنها رأته عام ١٩٣٤ . ولقد ظهرت فى حياة فرويد – عدا الترجمات المذكورة فى هذه المقدمات – ترجمة روسية (١٩١٣) وترجمة يابانية (١٩٣٠) وترجمة تشيكية (١٩٣٨) .]

تخليت عن محاولة تضمينه قائمة بالمراجع المنشورة فى مشكلات الحلم منذ أول ظهور « تفسير الأحلام » ، وألغى القسم الذى كان مخصصاً لذلك فى الطبعات السابقة . وحذف كذلك المقالان اللذان شارك بهما أوتو رانك فى طبعات سابقة بعنوان « الحلم والشعر » و « الحلم والأساطير » .

ڤيينا ، فى ديسمبر ١٩٢٩